شَجَرَةُ
الأَنبِيَاءِ
- ٣ -

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ
المَغْلُوبُ المُنْتَصِرُ

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥	منصور الرفاعى عبيد.
م ن ن و	نوح عليه السلام: المغلوب المنتصر/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
	٢٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛٣)
	تدمك : ٨ ـ ١١٢٧ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
	١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٨١٨٢ / ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ عُمرَ الإنسَان في الحـيَاة الدُّنيا الَّتي نَعيشُ فيهـا لاَ يُقاسُ بالدَّقائق والسَّاعَات، كَمَا أنهُ لاَ يُحسَبُ بالأيامِ والشُّهورِ، ولاَ بالسِّنينَ التى يَقضيهَا فوقَ هَذَا الكَوكبِ الأرضيِّ.

وإنَما يقَاسُ عُمرُ الإنسَان بَما قَدَّمهُ منْ جَلائل الأعمَال، وبمَا تَركَتْ يَداهُ منْ نتاجٍ طَيب وَخُلق عَظيمٍ، وَمنْ أعمَال تُخلِّدُ ذكرَاهُ، وتتجلَّى فيهَا المرُوءةُ والشهامةُ، والنجدةُ والهمةُ والشَّجاعَةُ.

وَمنَ النَّاسِ طائفةٌ اصْطفَاهَا اللهُ سُبحَـانَهُ وتعَالَى، هُمْ أنبياؤهُ عَليهمُ الصَّـلاةُ والسَّلامُ، يتَـمتَّـعونَ كُلُّهمْ بالصِّـفات المثْلَى، والهـمَمِ العَالـيَةِ، والصَّبر، والدَّعْـوة إلَى الله بهمَّة ونشَاط وشجَـاعَة فَائقة مهـمَا لاَقَوا مَنْ عَـقبَـات، وصَادَفُـوا منْ مَكارهَ، وَاصطَدَمُـوا بمَا يشُقُّ عَلَى الأنفُسِ، مَنْ جُحود ونُكرَان.

وَمنْ هَؤلاء الأَشخَاصِ الَّذينَ ضَـربُوا لَنَا المثَلَ الأعْلَى في طُول البَال وَالصَّبرِ الجميل، والتَّـأنِّي وعدَمِ الغضَبِ، نَبيٌّ عَظيمٌ، وَرسُولٌ كريمٌ، هُوَ سَيدُنَا نُوحٌ عَليه السَّلامُ.

فَهـوَ نَموذَجٌ للصَّـبرِ، ومَضـربُ المثَلِ فى التَّفـانى، وخدمَة أُمَّـته، وَنُصْحهمْ، والصبرِ عَلَى أَذَاهُمْ، وعَدَمِ الـغَضَبِ منْ جُحودهمْ وَنكرَانهمْ، لذلكَ كَانَ وَاحـداً منْ هَؤلاء الأَنبيـاء الذينَ سَمَّاهُم القـرآنُ الكريمُ أُولي العَزْم، وخَاطبَ اللهُ سـبحَانَهُ وتعَالَى نبـيَّه مُحمَدًا ﷺ بـأنْ يقْتدى بهم، فَقَالَ لهُ جَل شَأنهُ: ﴿ **فاصبْرْ كمَا صبر أُولُوا العَزْم من الرُّسُل** ﴾[الأحقاف: ٣٥].

فَلنعشْ لحظات طَيبةً مَعَ هَذَا النَّبيِّ الطِّيبِ العَظيمِ.

مَنْ هُوَ؟

إنَّ نُوحًا عَليه السَّلامُ، هُو النَّبىُّ الثَّالثُ، بَعدَ آدمَ وإدريسَ، عَليهِمْ جَميعًا السَّلامُ. وَقدْ وُلدَ مِنْ نَسلِ إدريسَ، فَهُوَ جَدُّهُ، وآدمُ هُوَ جَدُّهُ الأكبرُ.

وَقَدْ وُلدَ عَليه السَّلامُ فى وَقت كَانَ النَّاسُ فيه قَدْ تَمادَوْا فى الشِّرْك وَالكُفْر بنْعمةَ الله فَعبدُوا الأَصنَامَ التِى كَانُوا يَنحتُونَهَا بأيديهِمْ مِنَ الحجَارَةِ أو الأَخشَابِ، وَسَمَّوْهَا بأسماء عَديدَة، ذكرهَا القرآنُ الكَرِيمُ فِى أكثر مِنْ موضعٍ وعرَّفهَا لَنَا بأسمَائهَا:

وَدٌّ - سُواعٌ - يَغوثُ - يَعُوقُ - نَسرٌ.

ولَما كَانَ الشِّركُ بالله مِنْ أَكبر الكَبائر، فَقد اشْتدَّ غضَبُ الله عَلَى المشْركينَ، ولَكنْ كَانَ مِنْ رَحمته الواسعَة أَنْ يَرسلَ الأَنبياءَ مُبشِّرينَ ومُنذَرينَ لئلاَّ يكونَ للنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بعدَ الرسُلِ.

وَأَرسَلَ اللهُ نُوحًا إلى قَومه، لينذَرهمْ ويبشرَهُمْ، ويدْعوَهُمْ إلَى عبادَة الله وحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، ويدُلَّهُمْ إلَى طريق الخيْر، ويُبيِّنَ لَهُمْ الصِّراطَ المُسْتقيمَ الَّذى يُوصِّلُهمْ إلَى مَرضَاة رَبِّ العَالَمينَ.

ولَكنْ.. وكَالعَادة مَعَ كُلِّ دعوَات الخيْرِ والصَّلاحِ، وَقَفَ قَوْمُ نُوحٍ مُنكرينَ لدعْوته، مُجادَلين مُحاورينَ، يَقُولُونَ:

- إنَّكَ يَانُوحُ، لاَ تمتَازُ عَنَّا بالغنَى، فكَيفَ يُرسلُكَ اللهُ إلينَا، كَمَا أَنكَ لاَ تَمتازُ بالفَضْلِ فكيفَ تكُونُ سَبَبًا لهدَايتنا وإرشَادنَا؟

لَقد اسْتكبرُوا واسْتَنْكَفُوا أَنْ يكُونَ إنسَانٌ مثلُ نُوحٍ مَصدرَ هدايتهمْ إلَى الخيرَ، ودَفعهُمُ الكبرُ والتَّعنُّتُ أَنْ يَطلُبُوا مِنهُ طلبًا غَريبًا، لاَ يقبَلُهُ رَسولٌ كَريمٌ، وَنبىٌّ مبعُوثٌ لهدَاية البشَر.

قَالُوا: يَانوحُ، إنْ كُنتَ تريدُ أَنْ نصدِّقَ رسَالتَكَ وَنتبعَ دَعوتَكَ فَاطرُدْ هَؤلاءِ الفقَراءَ الذينَ آمنوُا معَكَ. وَلاَ تَنتظر منَّا أنْ نَتَّبعَكَ وقد اتَّبعَكَ



الَّذين هُمْ أَراذلُنَا، ولاَ يجُوزُ أَنْ يجتَمعَ العُظمَاءُ والأَرَاذلُ فِي اتِّبَاعِ دَعوةٍ واحدَة.

ولَمْ يقبلْ نُوحٌ عليه السَّلامْ هَذَا المنطقَ الأعوجَ، وَظَلَّ يدعُوهُمْ بِدُون بَأس ولاَ ملاَل، يَستعينُ اللهَ عليهِمْ ويدْعوهُ جَلَّ شأنُهُ، وَيشكُو إليْه مَا يَصنعُونَهْ. ويَصفُ لَنَا القرآنُ الكَرِيمُ بَعضَ هَذه المواَقف، فَيقُولُ ربنَا سُبحانَهُ وتعالَى: ﴿ قال نُوحٌ رَبِّ إنهُمْ عصوْني واتبعُوا من لَّمْ يزدْهُ مالُهُ ووَلدُهُ إلاَّ خسارًا ﴿٢١﴾ ومكرُوا مكرًا كبارًا ﴿٢٢﴾ وقالُوا لا تذرُنَّ آلهتكُمْ ولا تذرُنَّ ودًّا ولا سُواعًا ولا يغُوث ويعُوق ونسرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح]

كَمَا قصَّ علينَا القُرآنُ الكَريمُ بدايَةَ إرسَال نُوحٍ إلَى قَومه فَقالَ الحقُّ تبَاركَ وتَعالَى: ﴿ ولقدْ أرسلْنا نُوحًا إلىٰ قوْمه إنِّي لكُمْ نذيرٌ مُّبينٌ ﴿٢٥﴾ أن لاَّ تعبُدُوا إلاَّ اللهَ إنِّي أخافُ عليكُمْ عذابَ يومٍ أليمٍ ... ﴾ [هود: ٢٥ - ٣١] .

وَهكذَا يَحكي لَنَا القرآنُ الكَريمُ تفَاصيلَ أَحسنِ القَصصِ، قَصصِ الأنَبياء عَليهمُ السَّلامُ، ليكُونُوا أسوةً للبَشَرِ فِي الصَّبرِ وَحُسنِ القيَامِ عَلَى الدَّعوة، وَاللُّجُوء إِلَى اللهِ فِي المكارِه والملمَّات.

جِدَالٌ.. مُستَمِرٌّ

تلَطَّفَ نُوح عَليه السَّلامْ، معَ قَومه وخَاصَّةً الأغنياءَ منهُمْ، فَأفسَحَ لَهمْ مجَالَ النقَاشِ والحوَار، وكَانَ الهدَفُ مِنْ حوارهمْ ونقَاشهمْ أَنْ يوضِّحَ لهمُ الصَّوابَ، ويبينَ لهُمُ الخطَأ، ويَضربَ لهُمُ الأَمثَالَ، ويوَجِّهَ أنظارَهُمْ إلَى عَجيبِ صُنعِ الله، الَّذى بقدْرته وعَظمَته خلقَهُمْ أَطوَارًا، وجعَلهُمْ يَمرُّونَ فِي حَياتهِمْ بمَراحلَ مُختلفَةٍ منَ الصِّبَا وَالشَّبَاب، إلَى الكُهولَة، والشَّيخُوخة، إلَى الهرَم، ومنهُمْ مَنْ يردُّ إلَى أرذلِ العُمرِ، أليسَ ذَلكَ منْ دلائلِ قُدْرة الله التي ينبَغي أَنْ يتأملَّهَا الإنسَانُ فِي نَفسه، فيعْلمَ منْ وَاقعِ حيَاته كَيفَ كَانتْ بِدايتُهُ، وكَيفَ ستكُونُ نهَايتُهُ...

ولقد كان اهتمام نوح بقومه وصبره عليهم لطفا من الله وكرما منه، وَفضْلاً وإحْسَانًا؛ لأنَّ اللهَ الخَالِقَ هُوَ العَالِمُ بعِبَاده وَطبائعِهِمْ، فَأَرسَلَ إليْهِمْ نَبيًّا واسعَ الصَّدرِ، عَظِيمَ الحلم، يُحاوِرُهُمْ ويُجادلهُمْ بالحكْمَةِ والموعظة الحسَنَةِ، يسألهُمْ نُوحٌ عليهِ السَّلامُ سُؤالَ المرشِدِ المعَلم الَّذى لاَيُريدُ للمَسْئُولِ إلاَّ الهدايَةَ والصَّلاحَ، يَقُولُ لهمْ:

- هَلْ هُنَاكَ خَالِقٌ غَيرُ الله عَزَّ وجَلَّ؟ وَهلْ هَذه الأَصنَامُ الَّتى سَمَّيتُمُوهَا بأسْماء مَا أنزلَ اللهُ بهَا منْ سُلطانٍ تَنفعُ أو تَضُرُّ، وَهَلْ تُغنى عَنكُمْ منَ الله شَيْئًا؟

ويُفحَمُ القَوْمُ وَلاَ يَجدُونَ مَا يُرُدُّونَ به عَلَى نُوحٍ عَليه السَّلامُ، لأنَّ الفطرةَ تقُولَ لهمْ، وللناسِ كَافةً أنُه لاَ خَالقَ إلاَّ اللهُ.

وَيعودُ نُوحٌ إلَى السُّؤال:

- هَلْ يليقُ بكمْ أَيهَا العُقلاءُ، أَنْ تعبُدُوا الأَصنامَ الَّتى تَصنَعُونَهَا بَأيديكُمْ، وَقدْ كَرَّمَكمُ اللهُ عَلَى كُلِّ الكَائنَات، وَميزكَمْ بالعَقْلِ الذى تَعرفُونَ به الحقَّ منَ الباطل، وَأسْجَدَ لَكمْ مَلَائكتَهُ وَأَنتُمْ لاَ تزالوَنَ فى صُلْبِ أبيكَمْ آدمَ، هَلْ يَجوزُ لكُمْ أَن تعْبُدُوا غَيرَ الله الَّذى أَسبغَ عَلَيْكُمْ نعمَهُ ظاهرَةً وبَاطنَةً، وعَلَّمكُمْ مَا لَمْ تكُونُوا تَعلَمُونَ؟

وَهلْ منَ المعقُول أَنْ ينحرفَ الإنسَانُ عَنِ الفطرَة السَّليمةِ، ويسْجُدَ لأحجَارٍ لاَ تُبصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ، وَلَاَ تضُرُّ ولاَ تَنفعُ؟

فمَاذَا كَانت النَّتيجَةُ؟ ومَاذَا كَانَ جَوابُ قَومه؟

لَقدْ كَانُوا يتبرَّمونَ بهذه الأَسْئلة الَّتى لاَ يريدُونَ أَنْ يعترفُوا بجوَابهَا الصَّحيح، فكَانُوا يؤذونَ نوحًا عليه السَّلامُ، ويعتدُونَ عليه، وكَانَ الكبرَاءُ منهُمْ قَد مكروا مَكْرًا، ودَبرُوا أَمْرًا، افتراءً وبهتَانًا..

لَقدْ قرَّرَ هَؤلاء الكَفرَةُ أَنْ ينشُرُوا بينَ النَّاس أَنَّ نُوحًا رَجُلٌ لاَيَستطيعُ حَمْلَ المسئُوليَّةِ؛ لأنَهُ إنسَانٌ غَيرُ سَوِيٍّ!! فكيفَ يَبعثُهُ اللهُ ويرسْلُهُ لهدَايَة النَّاسِ.. إنَّ هَذَا لشيْءٌ عَجيبٌ..

ويقولُ القرآنُ الكريمُ رداً علَى قولهِمْ هَذَا ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴿٦٣﴾﴾[الأعراف].

ولكنهم كمَا يَصفُ القرآنُ الكريمُ موقفَهُمْ ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿٣٢﴾﴾ [هود]، ويُجيبُهُمْ نُوحٌ عليه السَّلامُ، كَمَا يَحْكِي لَنَا القُرآنُ الكريمُ: ﴿قال إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴿٣٣﴾ ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصح لكم إن كان اللهُ يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴿٣٤﴾﴾ [هود]

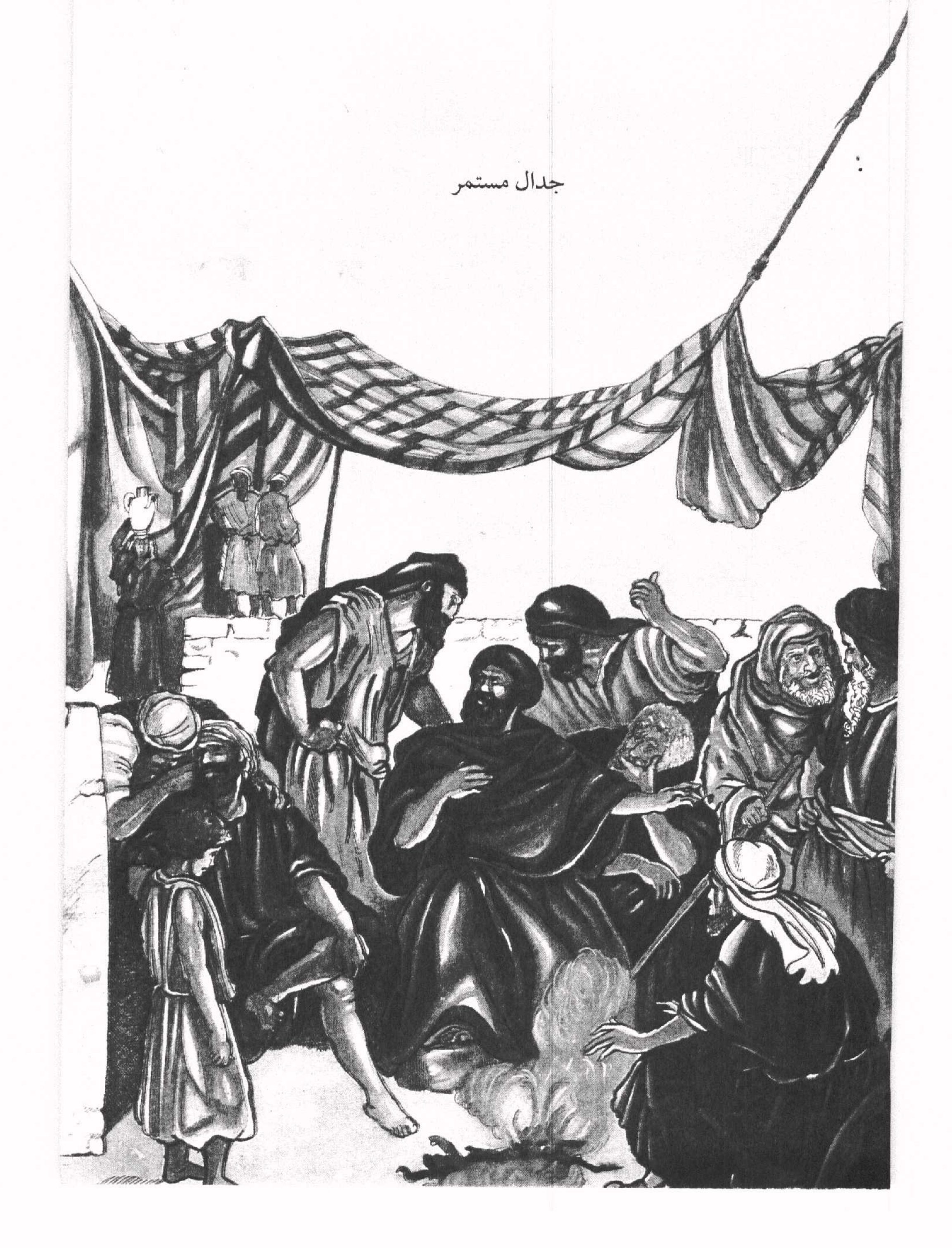
غضبُ الحليمِ

لَقدْ عَاشَ نُوحٌ عَليهِ السَّلامُ فِي قَومِه أَلفَ سَنة إلاَّ خَمْسِينَ عَامًا، يدعُو قومَهُ إلَى عبادة الله، إله الناسِ الواحد الأحدِ، ويُذكِّرُهمْ بالسَّماء ومَا فيهَا، والأرْضِ ومَا عَلَيْهَا، ولكنَّ دَعوتَهُ لَمْ تزدْهُمْ إلاَّ صُدُودًا وجُحودًا، فكَانُوا يَضعُونَ أصابعَهُمْ فِي آذانهِمْ، حَتَّى لا يَسْمعُوا كَلاَمَهُ، ويضعُونَ ثِيَابهُمْ عَلَى عُيونِهمْ لكَيْ لا يَروْا نُوحًا، وَهُوَ يَغْدُو ويرُوحُ بينَهُمْ، وكأنهُمْ يخْشَونَ تأثيرَ دعْوته عَلَى عُقولهمْ فرَاحُوا يضعُونَ بَينهُم وبينَهُ الحواجزَ والسُّدودَ حَتَّى لاَ ينفُذَ إلَى تفكيرهمْ أَيُّ تأثيرٍ منْ كَلامه اللَّين الَّذى يَستَميلُ القُلوبَ، ولَوْ كَانتْ منْ صُمِّ الصُّخُور.

ولَمْ ييأسْ، ولَمْ يتسرَّبْ إلَى نفْسه مَلَلٌ ولاَ سَأمٌ، وظَلَّ يواصلُ النصْحَ والتذْكيرَ بآيات الله، والدَّعوةَ إلَى عَبادته وَحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، فَهوَ وحدَهُ الخالقُ، البارئُ، الواحدُ القهَّارُ.

وَهكَذَا كُلُّ نَبيٍّ، لاَ يمْكنُ أَنْ يتسرَّبَ اليَأسُ إلَى نَفْسه، وخَاصَّةً إذَا كَانَ منْ أُولِى العَزْم منَ الرُّسلِ مثلَ نُوحٍ عَليهِ السَّلامُ؛ لأنَّ اليأسَ إحْدَى الصِّفَات الذَميمَة الَّتى لاَ يتصفُ بهَا إلاَّ الفَاشلُونَ، الَّذينَ يرتدُّونَ عَلَى

جدال مستمر



أعقابهم عندما تصادفهم أولى عقبات الطريق، أمَّا أنبياءُ الله والعُظماءُ من الرجال، فإنَّ ثقتهم بالله تدفعُهُم إلى أنْ يشقوا طريقهم في إصرار، وتحدٍّ مهما كانت العقبات والمعوقات؛ ولأنَّ رسالة الأنبياء هي الجهادُ من أجلِ إسعاد البشرية، وإبلاغ كلمة الحقِّ، كما نزلت من عند الله الحقِّ.

لكنَّ الله جلَّ شأنهُ، وهو أعلمُ بعباده، أوحى إلى نوح عليه السَّلامُ وحيًا، أدركَ منهُ أنَّ مشوارهُ قدْ بلغ غايتهُ، وليس عليه إلاَّ أنْ يلجأَ إلى الله بدُعاء، وكانَ هذا الدُّعاءُ بمثابة ثورة تُطهِّرُ الأرض كُلها من المستكبرينَ، والذين يُريدون في الأرضِ الفسادَ.

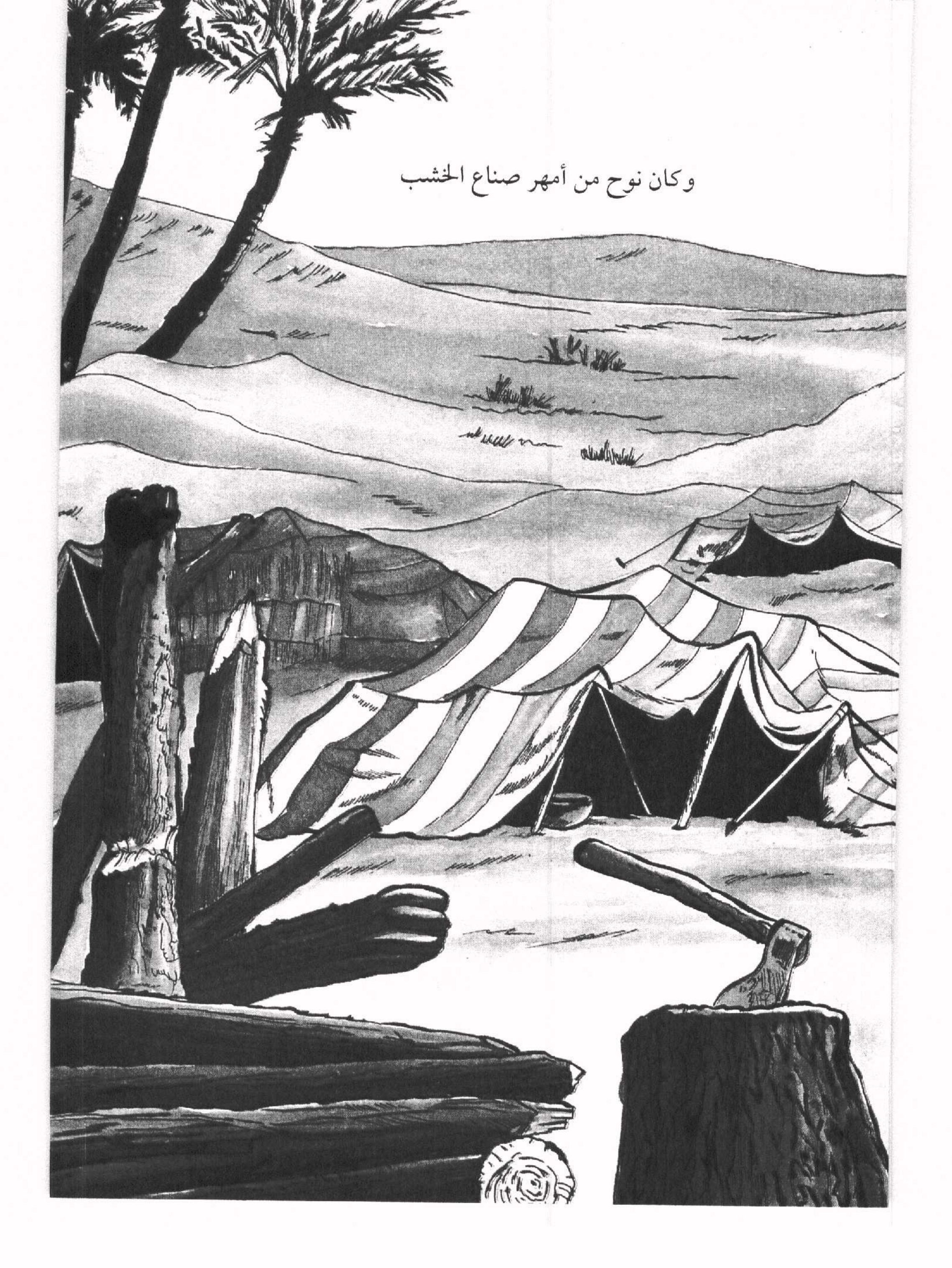
ولمْ يتوانَ نوحٌ، فدعا ربَّهُ أنِّي مغلوبٌ فانتصرْ، ياربُّ لاَ تذرْ على الأرضِ من الكافرين ديَّارًا، إنكَ إنْ تذرْهُمْ يُضِلُّوا عبادكَ ولاَ يلدُوا إلا فاجرًا كفَّارًا.

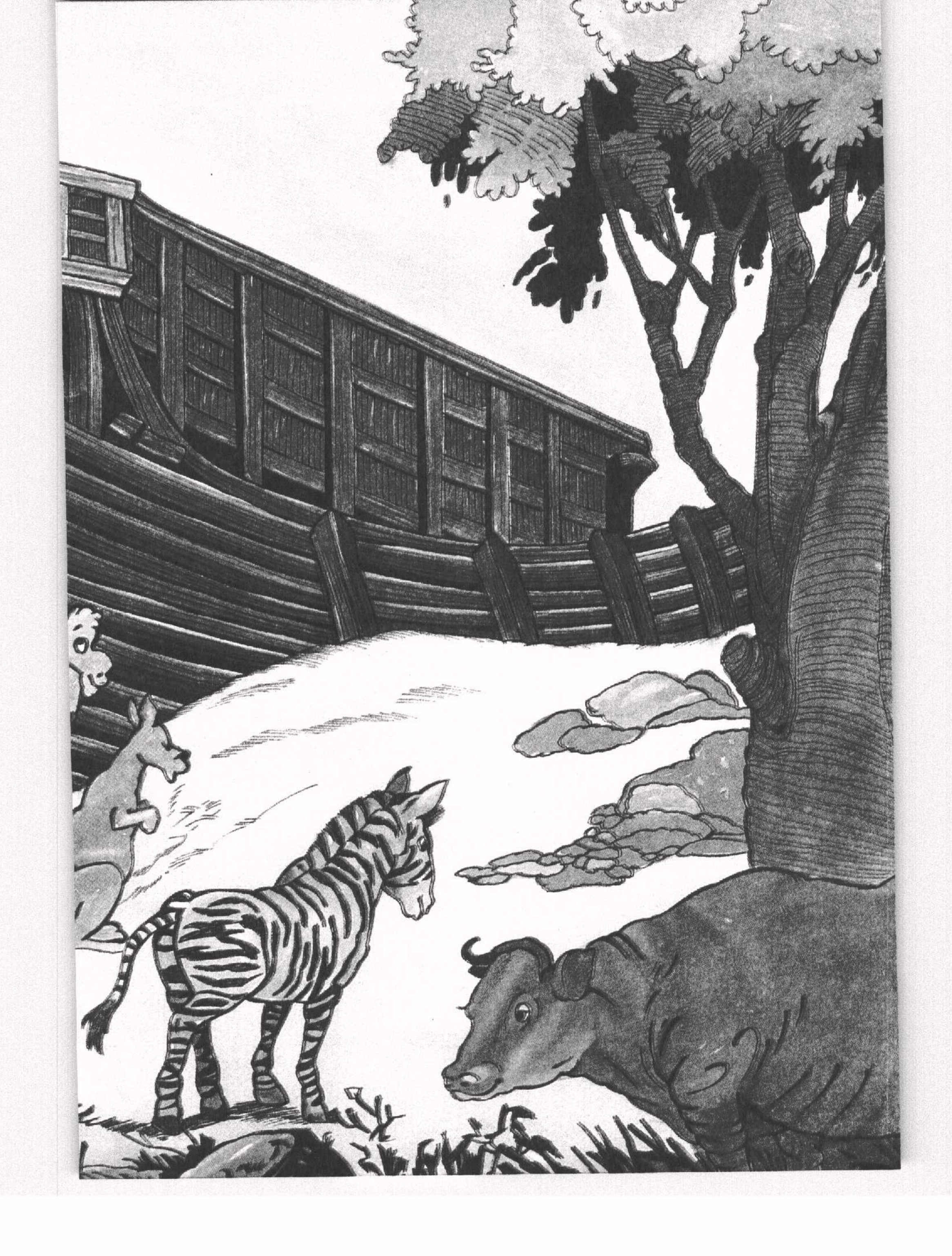
ولقدْ قصَّ علينا القرآنُ الكريمُ هذه المواقفَ في قوْله تعالَى:

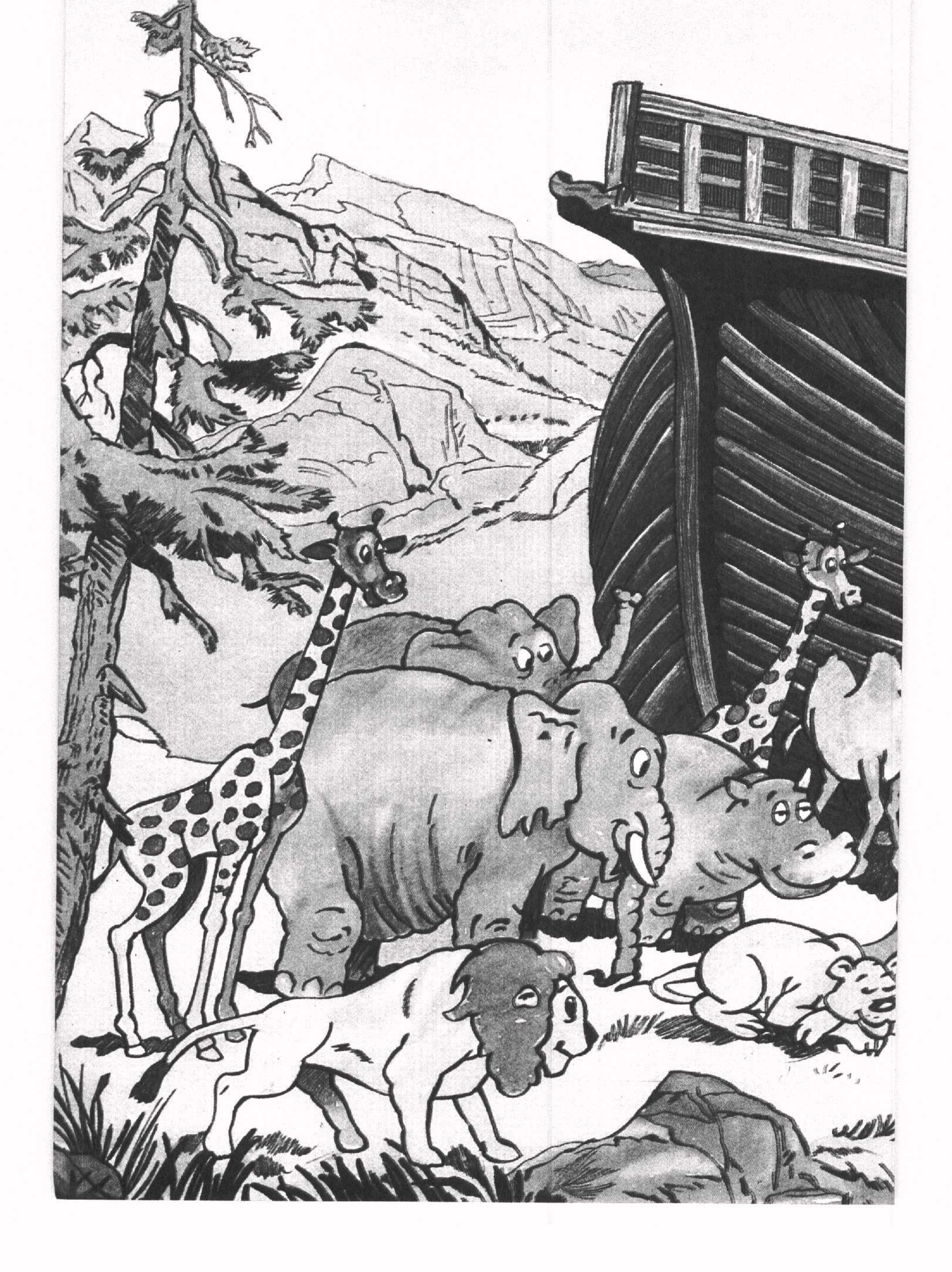
﴿ وأُوحي إلىٰ نوحٍ أنَّهُ لن يُؤْمنَ من قوْمكَ إلاَّ من قدْ آمن فلا تبْتئسْ بما كانُوا يفعلُون (٣٦) ﴾ [هود]

كما قصَّ علينا القصَّةَ كُلَّها تقريبًا باختصارٍ في سُورة نُوحٍ، الَّتي لمْ تأت بذكْر شيْءٍ آخرَ، منْ بدايتها إلى نهايتها، وإنَّ في تلاوة هذه السُّورة لموعظةً وذكرى، وعبرةً وخبرًا، عنْ قوْمِ نُوحٍ وكيفَ كانتْ نهايتُهُم يقُولُ الحقُّ تباركَ وتعالَى:

﴿ إنَّا أرْسلْنا نُوحًا إلىٰ قوْمه أنْ أنذرْ قوْمكَ من قبْل أن يأْتيهُمْ عذابٌ أليمٌ (١) قال يا قوْم إنِّي لكُمْ نذيرٌ مُّبينٌ (٢) أن اعْبُدُوا اللَّه واتَّقُوهُ وأطيعُون (٣)


وكان نوح من أمهر صناع الخشب





يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو
كنتم تعلمون ﴿٤﴾ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴿٥﴾ فلم يزدهم دعائي
إلا فرارا ﴿٦﴾ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا
ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿٧﴾ ثم إني دعوتهم جهارا ﴿٨﴾ ثم إني
أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴿٩﴾ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴿١٠﴾
يرسل السماء عليكم مدرارا ﴿١١﴾ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات
ويجعل لكم أنهارا ﴿١٢﴾ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴿١٣﴾ وقد خلقكم أطوارا
﴿١٤﴾ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴿١٥﴾ وجعل القمر فيهن نورا
وجعل الشمس سراجا ﴿١٦﴾ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴿١٧﴾ ثم يعيدكم فيها
ويخرجكم إخراجا ﴿١٨﴾ والله جعل لكم الأرض بساطا ﴿١٩﴾ لتسلكوا منها سبلا
فجاجا ﴿٢٠﴾ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا
﴿٢١﴾ ومكروا مكرا كبارا ﴿٢٢﴾ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا
ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴿٢٣﴾ وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴿٢٤﴾
مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴿٢٥﴾ وقال
نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴿٢٦﴾ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك
ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴿٢٧﴾ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا
وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ [نوح: ١ - ٢٨].

لقد استجاب الله تعالى لدعاء نوح عليه السلام، فأوحى إليه أن يصنع سفينة تكون سببا لنجاته والمؤمنين معه، لكي لا يهلكوا مع الهالكين.

نوحُ يصنعُ السَّفينةَ

كَلَّفَ اللهُ نبيَّه نوحًا بصُنعِ السَّفينة، وَصناعَةُ السُفنِ تَحتاجُ إلَى مَهارة دقة، وتجـويد للأداء، ويقَالُ أنَّ نُوحًا عَليـه السَّلامُ كَانَ مِنْ أمْـهرِ صُنَّاعِ الخشَب، فَـبدأَ ينفِّـذُ مَا أمَـره اللهُ به وكلَّفهُ إياهُ، وَهكذَا عَلَـى مرأى مِنَ النَاسِ ومسمعٍ بدأ نوحٌ يعملُ بمساعَدةِ المؤمنينَ مَعَهُ.

ولَمْ ينجُ مِنْ سخـرية قَومه وَاستـهزَائِهمْ به، وَهوَ الَّذى لا يريدُ لَهمْ إلاَّ الخيرَ والنَّجاةَ منْ عَذابِ الله الأليمِ فِى الدنيَا والآخرَة، فَمَا أنْ شَاهَدُوهُ يجلبُ الأَخـشَابَ ويعمَـلُ فيهَـا بأدَواتِ التقْطيعِ والـتَّنجير، حَـتَّى بدءُوا ينظَرُونَ بعضُهُمْ إلَى بَـعضٍ ويقُولونَ، وَهمْ يَعجَبُونَ مـمَّا يرونَ: إنْ نوحًا ترَكَ الدعْـوةَ إلَى الله، وعَملَ نَجـارًا. انظُرُوا إليْه، أَلَمْ نَقُلْ منْ قَـبلُ أنَّهُ إنسانٌ غيـرُ سَوىٍّ، إنه يُريدُ أنْ يصنعَ سَفينةً تجـرِى عَلَى الأَرضِ اليَابِسة، ويسألونَه فِى استهزَاء: أَينَ يانوحُ البَحرُ الَّذى سَـتجرى فيه سَفينَتكَ، إنَنَا لم نعهدْ مِنْ قبلُ سَفينةً تسيرُ فِى صَحَراءَ.

ولَمْ يكنْ بوسْعِ نُوحٍ إلاَّ أنْ يقُولَ لَهمْ حُسنًا، ويدْعوَهمْ إلَى الإيمَانِ بالله، قَبلَ أنْ يأتىَ وَعْدُ الله، فيندَمُـوا وَلاَ ينفعَ الندَمُ، ولاَ تفيدَهـمُ التوبَةُ عندَمَا يَروْنَ العذَابَ.

وبَالصَّبرِ الجميلِ استَطاعَ نوُحٌ أنْ يكمِـلَ صُنعَ سَفينَته عَلَى أحْسنِ مَا يكونُ الصَّنعةُ وأفـضَلَ مَا يكونُ الأَداءُ. وَانتظرَ أَمْـرَ الله لَهُ فِيمَـا يَجدُّ مِنْ خُطوَات.

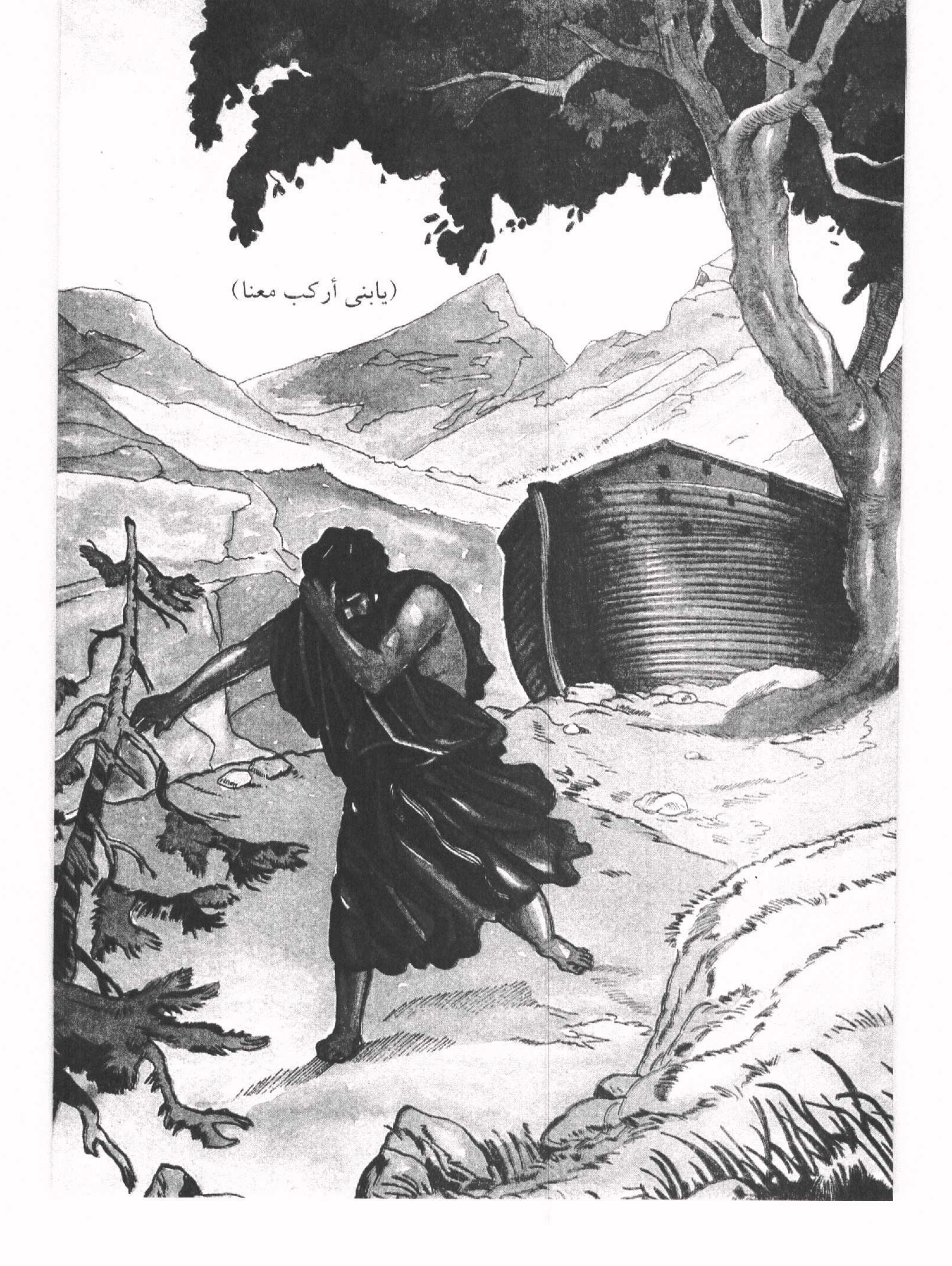
وَكانَ أَمرُ الله عَزَّ وجَلَّ أَنْ يأخذَ نُوحٌ مِنْ كُلِّ شَىءٍ حَىٍّ فِى الوُجود ذكرًا وأُنثَى، حَتَّى تَبدأ عِمـارةُ الكَونِ مِنْ جَديدٍ بعْدَ أنْ ينفذَ اللهُ وعدَهُ فِى القومِ الكافرِين.

ولما أتمَّ نوحٌ هذه المهمة كانَ أمرُ الله أنْ يركبَ نوحٌ في السَّفينة هُوَ والذينَ آمنوا معَهُ، وأنْ يأخذوا معَهم كُلَّ هذه المخلوقات التى أمرَهُمُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى بحملها، وكانت السَّفينةُ كبيرةً وواسعةً بحيْثُ تتحمَّلُ كُلَّ هذه الأشياءِ التى ستعمرُ الكوْنَ مِنْ جديد.

وجاءَ الطوفانُ

وبدأَ انتقامُ الله عزَّ وجلَّ، فقدْ أمرَ السَّماءَ أنْ تمطرَ مطرًا غزيرًا، لاتستطيعُ أيةُ قوةٍ السَّيطرةَ عليه، فأرسلتِ السَّماءُ سيُولاً متواصلةً منَ الماء المنهمر.

وفى الوقْت نَفْسه أمرَ اللهُ الأرضَ أنْ تتشقَّقَ، وتتفجَّرَ منها العُيونُ التى تتفجَّر بالماء المتتَابع لاَ تحجزُهُ سدود ولاَ جُسورٌ، لو كانتْ هُناكَ سدودٌ وجسُورٌ، والتقى ماءُ السَّماء وماءُ الأرْضِ علَى أمرٍ قدْ قدَّرهُ اللهُ سبحانهُ وتعالَى، وكانَ نُوحٌ ومَنْ معَهُ فى السَّفينة وهىَ تجرى بهمْ فى مَوْجٍ كالجبال، وكانتْ عنايَةُ الله ورعَايتُه مَعَ المؤمنينَ به، فلمْ تتأثَّر السَّفينَةُ بماء السَّماء، ولمْ تغرَقْ فى ماء الأرضِ، وأصبحَ الكونُ كلُّهُ بحرًا واسعًا، وماء موصُولا بعضُهُ ببعْضٍ، وليسَ هُناكَ منْ حياة إلاَّ فى السَّفينة التى تحملُ المصدِّقينَ برسالَة السَّماء، وهُنَا يَصفُ لَنَا القُرآنُ الكَريمُ بعضَ المواقف منْ قصة نُوحٍ، فيقُولُ الحقُّ تباركَ وتعَالَى: ﴿ **واصْنع الفُلْك بأعْيُننا ووحْينا ولا تُخاطبْنى فى الذين ظلمُوا إنهُم مُغْرقُون ﴿٣٧﴾ ويصْنعُ الفُلْك وكُلَّما مرَّ عليْه ملأٌ من قوْمه سخرُوا منْهُ قال إن تسْخرُوا منَّا فإنَّا نسْخرُ منكُمْ كما تسْخرُون ﴿٣٨﴾ فسوْف تعْلمُون من يأْتيه عذابٌ يُخْزيه ويحلُّ عليْه عذابٌ مُقيمٌ ﴿٣٩﴾ حتَّى**


(يابني أركب معنا)

إذَا جاءَ أمْرُنَا وفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا من كُلٍّ زوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأَهْلَكَ إلاَّ من سَبَقَ عليْه الْقوْلُ ومنْ آمن ومَا آمن معهُ إلاَّ قليلٌ ﴿٤٠﴾ وقَال ارْكبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّه مجْريهَا ومُرْساهَا إنَّ ربِّي لغفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ [هود: ٣٧ - ٤١].

يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا

كَانَ لنـوحٍ عليه السَّلامُ عـدَّةَ أوْلاَد، وكَانَ منهُمْ ولَدٌ عَـاصٍ يُدْعَى «كنعان» كَانَ مُتـمرِّدًا عَلَى دَعوة أبيه، مُـتَحيِّزًا إلَى جَـانبِ الكُفارِ، ورغم ذَلكَ كَانَ أبوهُ يتمنَّى لَهُ النَّجاةَ.

وتريَنا قصَّـةُ نوحٍ عليه السَّـلامُ، أنَّ عَاطفَةَ الأُبـوة لاَ تَموتُ مَهْـمَا كَانَتْ قَسْوةُ الأَبناءِ وعقُوقُهُمْ، وعندمَا جاءَ الطُّوفَانُ، نَادَى نُوحٌ ابنَهُ وكَانَ فِي مَعزِلٍ، قَالَ: يَابنيَّ ارْكبْ معَنَا، ولا تكنْ مَعَ الكافرينَ.

ولكنَّ الشِّقْوةَ كَانتْ قَدْ كُتبتْ عَلَى كنعَانَ، فَلَمْ يَستجبْ لنداءِ أبيه، وقَالَ: سآوي إلَى جَبلٍ يَعصمُنِي منَ الماء، ولاَ حَاجَةَ إلَى سَفينَتكَ هَذه، وسَوفَ أنجُو إذَا مَا صَعدْتُ إلَى الأمَاكنِ العَاليَةِ..

قَالَ نُوحٌ: لاَ عاصِمَ اليوْمَ منْ أمرِ الله إلاَّ مَنْ رَحِمَ.

وتلاطمَت الأَمواجُ فجرَفتْ كنعانَ معهَا، وصنَعتْ حَاجزًا بينَهُ وبينَ السَّفينة، وحَالَ بينهمَا المْوجُ فكَانَ منَ المُغرَقينَ.

لقـدْ هَلكَ كَنعَـانُ معَ الهـالكينَ؛ لأنهُ عَـاشَ معَ المتكبِّـرينَ، وتأثَّرَ بأفكارِ الجـاحدينَ، ولَمْ يُردْ أنْ يَدخُلَ فِي زُمـرةِ المؤمنينَ، فكانَتْ نهـايتُهُ الغَرقَ، وكَانَ منَ الهالكينَ.

وفِي أثناءِ ذَلكَ لَمْ يكنْ نُوحٌ يَنسَى وَلدَهُ رَغمَ كُفرِه وعُقوقِه، فتوَجَّهَ إلَى الله يناجيه ويَدعُوهُ أنْ يجعَلَ ولدَهُ منَ النَّاجينَ.

قَـــالَ نوحٌ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِــى وَإِنَّ وعْـدَكَ الحقُّ وأَنــتَ أَحكَمُ الحاكمينَ . .

ويوُحى اللهُ سُبـحَـانَهُ وتعَـالَى إِلَى نُـوحٍ : إنَّ ولدَكَ هَذَا لَيسَ مِنْ أَهلكَ ، إنهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِحٍ ، وَإِنَّ غيرَ الصَّالِحينَ لاَ يمْكِنُ أَنْ يكُونوُا عِندَ الله مِنْ أَهلِ الصَّـالحينَ ، حَتَّى لوْ كَـانُوا أَبناءَهُمْ مِنْ صُلبِهـمْ ؛ لأنَّ القرَابَةَ الحقـةَ وَالصِّلَةَ الصَّـحيحـةَ ، هِيَ قَرابةُ الإيمـانِ والصَّلاحِ ، والاتِفَـاقِ فِى العَقيدَةِ السَّليمةِ والأعمَالِ المنبعثةِ عَنْ هَذه العقيدةِ .

وهكَذَا هَلَكَ كَنعَـانُ ، ولَمْ تشفَعْ لَه بنوتُهُ لِنبىٍّ مِنْ أُولِـى العزْمِ مِنَ الرسُلِ ، ونجَّى اللهُ نوحًا والذينَ معَهُ ، رغمَ شِدَّةِ الأَمطَارِ ، وتَتَابُعِ السُّيولِ ، التِى غَمرَتِ الأَرضَ كُلَّهَا ، حَتَّى اسْتقرتِ الـسَّفِينَةُ عَلَى قِمةِ أَحَدِ الجَبالِ ، وَهوَ جَبَلُ الجُودىِّ ، يقَالُ أَنَهُ كَانَ فِى نَواحِى دِيارِ بَكرٍ فِى الجزيرَةِ العَربيةِ .

وَهكذَا كَانَ انْتقَامُ اللهِ مِنَ الظَّالمينَ ، ورَحَمةُ اللهِ بالمؤْمنينَ .

ويْبقَى لنَا بعدَ ذلكَ ، نَحنُ الذِينَ نُؤمِنُ باللهِ ومَلاَئكتِهِ وَكُتبِهِ ورُسلِهِ ، وَلاَ نفـرِّقُ بَينَ أَحدٍ مِنْ رُسلِهِ ، يَبْـقَى لَنَا وعَلينَا أَنْ نَتلُوَ القُـرآنَ الكريمَ ، ونقْرأ مِنْ بينِ آياتِه قِصةَ نوحٍ عَليهِ السَّلامُ ، فَنأخُذَ العِظَةَ والعِبرَةَ لأنفسنَا ، ونعلمَ أَنَّ اللهَ لَـمْ يَقصَّ عَلينَا هَـذِهِ القِـصَصَ إلاَّ لِـتكُونَ عِـبـــرَةَ لأولِى

الألبابِ، فنلتزمَ بأوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، التي أوحاهَا إلَى أنبيائِهِ، وإلَى خاتمِ الأنبياءِ جميعًا سيدِنَا محمَّدٍ ﷺ.

وأنْ يسمعَ الأبناءُ نصائحَ الآباءِ ويُطيعُوهُمْ، فِي غيرِ معصيةِ اللهِ، وأنْ نحترمَ أهلَ العلمِ والرَّأي فِي مُجتمعِنَا، وأنْ نتدارسَ القرآنَ الكريمَ الذي يقصُّ علينَا قصصَ الأولينَ، ويحكِي لنَا حكاياتِ الغَابرينَ، ويصفُ لنَا مَا يقُصُّه بأنهُ أحسنُ القصصِ. وفِي هذَا السِّياقِ نجدُ القرآنَ الكريمَ يُكمِلُ لنَا قِصةَ الطوفانِ، فيقُولُ الحقُّ تباركَ وتعَالَى:

﴿وهِيَ تجْرِي بِهِمْ فِي موْجٍ كالْجِبالِ ونَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ فِي معْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكب معنا ولا تكُن مع الْكافِرِين ﴿٤٢﴾ قال سآوِي إِلىٰ جبلٍ يعْصِمُنِي مِن الْماءِ قال لا عاصِم الْيوْم مِنْ أمْرِ اللَّهِ إلاَّ من رَّحِم وحال بيْنهُما الْموْجُ فكان مِن الْمُغْرقِين ﴿٤٣﴾ وقِيل يا أرْضُ ابْلعِي ماءكِ ويا سماءُ أقْلِعِي وغِيض الْماءُ وقُضِي الأمْرُ واسْتوتْ على الْجُودِيِّ وقِيل بُعْدًا لِّلْقوْمِ الظَّالِمِين ﴿٤٤﴾ ونادىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فقال ربِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أهْلِي وإنَّ وعْدك الْحقُّ وأنت أحْكمُ الْحاكِمِين ﴿٤٥﴾ قال يا نُوحُ إنَّهُ ليْس مِنْ أهْلِك إنَّهُ عملٌ غيْرُ صالِحٍ فلا تسْألْنِ ما ليْس لك بِهِ عِلْمٌ إنِّي أعِظُك أن تكُون مِن الْجاهِلِين ﴿٤٦﴾ قال ربِّ إنِّي أعُوذُ بِك أنْ أسْألك ما ليْس لِي بِهِ عِلْمٌ وإلاَّ تغْفِرْ لِي وترْحمْنِي أكُن مِّن الْخاسِرِين ﴿٤٧﴾ قِيل يا نُوحُ اهْبِطْ بِسلامٍ مِّنَّا وبركاتٍ عليْك وعلىٰ أُممٍ مِّمَّن مَّعك وأُممٌ سنُمتِّعُهُمْ ثُمَّ يمسُّهُم مِّنَّا عذابٌ ألِيمٌ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٨].



بَعْدَ الطُوفَانِ

سكنت العَــواصفُ، وهدأَ الكَوْنُ، وَأمـرَ اللهُ السَّــمـاءَ أَنْ توقفَ أمطارَهَا وَالأرضَ أَنْ تلتئم وتَغيض عُيونُهَـا، وَأَنْ تبتلعَ مَا عَلَيْهَا مِنْ مَاء، وأمرَ الشَّمسَ أن تسْطعَ ليجفَّ الثرَى.. وتَعودَ الأَرْضُ إلَى مَا كَانتْ عَليه قَبلَ الطُّوفَـان، وهَبطَ نُوحٌ مِنَ السفينة هُوَ وَكُلُّ مَنْ كَـانَ فِيهَا، وَمَـا كَانَ فِيهَا، وبدأَ وَجهُ الأَرْضِ يَعمُرُ مرةً أخْرَى، وبدأت الحياةُ، تُولدُ مِنْ جَديد عَلى يَدِ الصَّالحينَ الذِينَ آمنُوا برِسَالةِ نُوحٍ عَليـهِ السَّلامُ، وصَدَّقُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عند الله.

واستَتبَّ الأمْـرُ وعَادت الحياةُ إلَى طَبيـعَتهَا، يتحـرَّكُ البشَرُ فِى كُلِّ مكَان، وتنتَـشرُ المخْـلوقَاتُ والكائناتُ هُنَـا وهُنَاكَ، ويَعمُّ الخَيْـرُ الأَرضَ كُلَّهَا، ببركَةِ الصَّلاحِ والتَّقوَى، وصدقَ اللهُ العظيمُ إذْ يقُولُ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦]

وبدأت الحضَـارَاتُ تَقومُ فِى أركَـان المعْـمُـورَة، والسَّمـاءُ تَجـودُ ببركاتِها، والأرضُ تُعطِى خيرَهَا، والناسُ يَعبُدُونَ ربَّهمُ الذِى أطعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمنهُمْ مِنْ خوفٍ.

لَقدْ كَـانَ الطُّوفانُ نهايَةً لمرحلة سَـادَ فِيهَـا الفَسادُ، وانتَـشرَ فِى كُلِّ البِـلاد، وَاستَـشرَى الكُفـرُ والإلحَادُ، فكَانَ لاَ بدَّ مِنْ نذيرٍ مِنَ اللهِ يَـقُولُ للناسِ أنَّ لكلِّ طغيانٍ نهَايةً، فكَانَ الطُّوفانُ الذى أنقَذَ البشَريةَ مِنَ اسْتمرَارِ الطغْيَـانِ، وَأنقذَ مَسيـرةَ الإنسَانية مِنَ الفسَـادِ، وطهَّرَ الأَرضَ مِنْ رجْسِ الأصنَامِ وعَبدَةِ الأوثَانِ.

ولقدْ عَاشَ نـوُحٌ عـمْـرا طـويلاً لا يَعلَمُ مُـدَّتَهُ إلاَّ اللهُ؛ لأنهُ لبثَ فِى قَومه ألفَ سَنَةٍ إلا خَمْسينَ عَامًا، يَدْعُو إِلَى اللهِ، ولَمْ يذكرْ لَنا القُرآنُ كَمْ كَانَ عمرُهُ فِى بدايةِ الدَّعوة. وكَانتْ أعمَارُ الناسِ تطُولُ فِى هذه الفَترة مِنْ حَيـاة البشـريَّة لحكْمة منَ اللهِ الحكيمِ، لـيَعمُـروا الأَرْضَ، ويتنَاسَلُوا فيكثرَ أولادُهمْ، وتنتشرَ ذُرياتُهُمْ.

لَقدْ أدَّى نُوحٌ الـرسَـالَةَ كَمَا أمَرهُ ربُّه، وبَلَّغَ النَّاسَ مَـا أُوحِىَ إليه، فِى صَبر طَويلٍ جَميلٍ، فكَانَتْ عَاقِبَـتُهُ النجَاةَ، وعَاقبةُ الكافِرينَ الهَلاكَ، وهكذَا تكُونُ العَاقبةُ للمُتَّقِينَ.

* * *

